

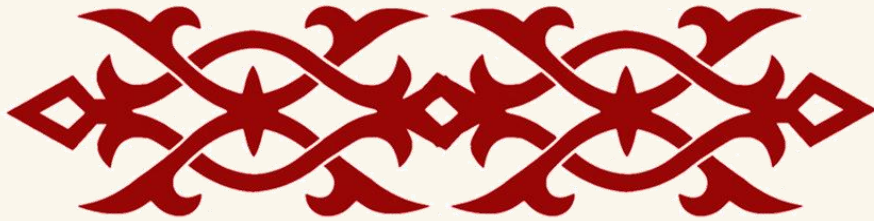
كُفِّرَ انْتِجَعِمَ مِنْ أَسْبَابِ نُزُولِ النِّقْمِ

للشيخ أُمِّ عَبْدِ اللَّهِ بنتِ الشَّيْخِ

مُقْبِلِ بْنِ هِشَامِ الوَادِعِيِّ

حَفِظَهَا اللَّهُ تَعَالَى





روابط الشیخة عبر منصات التواصل

-  <https://alwadei967.blogspot.com>
-  <https://t.me/alwad3ya>
-  <https://t.me/alwadeia2>
-  <https://whatsapp.com/channel/0029VaaQ6kF9Bb5seBKp2B18>
-  <https://chat.whatsapp.com/JxvDfXpwWyHBLyRPyEOPpS>





ﷻ

الحمد لله رب العالمين، القائل ﷻ في كتابه المبين: ﴿وَعَاتِبْنِي مِّنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُموهُ وَإِن تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ (٣٤) [إبراهيم: ٣٤]. **وأشهد** أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، **وأشهد** أن محمداً عبده ورسوله، أما بعد:

أخواتي في الله: إن من طبيعة الإنسان وسجيته كفران النعم؛ قال الله ﷻ في كتابه الكريم: ﴿قَتَلَ الْإِنْسَنُ مَا أَكْفَرَهُ﴾ (١٧) [عبس: ١٧]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ (٦) [العاديات: ٦]، أي: كفور، وقال سبحانه: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾ (١٥) [الزخرف: ١٥]، وقال سبحانه: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ (٨٣) [النحل: ٨٣]، وقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ﴾ (٦٦) [الحج: ٦٦]. وهذا من أوصاف الإنسان السيئة؛ فالإنسان له أوصاف سيئة يذكرها الله ﷻ، وأنها من جبلته وطبيعته وسجيته كهذه الأوصاف التالية:

كفران النعم من أسباب نزول النقم

٥

كفران النعم، ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾ (١٥).

ووصف الظلم والجهل؛ قال تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا
جَهُولًا﴾ (٧٢) [الأحزاب: ٧٢].

والعجلة في الأمور؛ قال تعالى: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ
آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ (٣٧) [الأنبياء: ٣٧].

يذكر الله ﷻ هذه الأوصاف؛ تحذيرًا منها، والحرص على التخلص منها،
قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ (١) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ (١٠) [الشمس:
٩-١٠].

إن كفران النعم -وهو أن يكفر نعمة الله سبحانه، بمعنى: يجحد نعم الله
سبحانه- يذكر الله ﷻ في كتابه الكريم قصصًا في كتابه عنها، وعن قُرَى
كفرت بأنعم الله، وعن أشخاص كفروا بأنعم الله؛ ليتبين أن عاقبة كفر
النعم الزوال.



يقول ﷺ: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [النحل: ١١٢].

يذكر غير واحد من المفسرين أن القرية هي مكة^(١)، ﴿كَانَتْ ءَامِنَةً﴾، كانت في أمن وأمان؛ لأنها البلد الأمين، كما قال ربنا ﷺ: ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴿٣﴾﴾ [التين: ٣]، وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧]، وقال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيَتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [العنكبوت: ٦٧]، وقال سبحانه: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِيْلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِّنْ جُوعٍ وَءَامَنَهُمْ مِّنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾﴾ [قريش: ١-٤].

فكانوا في أمن وأمان، وكان العرب يسبي بعضهم بعضًا، وفي قتل وقتال، وحروب وفتن، وأهل مكة في أمن وأمان، لا يُغار عليهم، ولا يحاربهم

(١) وعزاه ابن الجوزي في «زاد المسير» (٥٨٩/٢) إلى ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والجمهور.

قال: وهو الصحيح.

أحد؛ ولهذا لما دعاهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْإِسْلَام والتوحيد قالوا: ﴿إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نَخْطِفَ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَمْ نُمْكِنَ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجِبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِّنْ لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [٥٧: القصص].

يعني: هذه حجة باطلة؛ فالإسلام كفيل بالأمن ليس كما تزعمون.

والأمن نعمة من الله ﷻ، من أعظم نعم الله ﷻ نعمة الأمن؛ ولهذا الله ﷻ يقول: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [١٥٥: البقرة].

وإذا اجتمع هذان الأمران: الجوع والخوف، وهما متلازمان، فإنه يزداد الألم وتزداد المصيبة والمحنة.

فهنا ربنا ﷻ ذكر من أوصاف هذه القرية: ﴿كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً﴾ والمراد باطمئنانها، (أي: ساكنة بأهلها لا يحتاجون إلى الانتقال عنها؛ لخوف أو ضيق^(٢)).

(٢) «زاد المسير» (٢/٥٨٩).

﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ مستقرة ما تحتاج إلى طلب
الأرزاق في بلدان أخرى، وكما قال ربنا في الآية الأخرى: ﴿يُجَبِّئُ إِلَيْهِ
ثَمَرْتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّنْ لَّدُنَّا﴾، وهذا امتنان من الله ﷻ على قريش،
﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا﴾، أي: واسعًا متنوعًا من كل مكان.

﴿فَكَفَرْتَ بِأَنْعَمِ اللَّهِ﴾ وَالْأَنْعَمُ جَمْعُ نِعْمَةٍ كَالْأَشَدِّ جَمْعُ شِدَّةٍ، وَقِيلَ:
جَمْعُ نُعْمَى، مِثْلُ بُؤْسَى وَأَبُؤُسٍ^(٣)، أَعْرَضُوا عَنْ دِينِ اللَّهِ، وَكَفَرُوا بِتَوْحِيدِ
اللَّهِ، وَرَسَلَهُ.

﴿فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ صار
كأنه لباس على بدنهم مفصل، على أيديهم، أرجلهم، رؤوسهم، على
صدورهم، وظهر عليهم الشحوب والنحافة والبؤس.

﴿وَالْخَوْفِ﴾ الذعر.

(٣) «فتح القدير» (٣/٢٣٨).



ما السبب؟ {بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ} الباء سببية، أي: بسبب صنعهم، وفسقهم، وإعراضهم، فهذا جزاء من يكفر بنعم الله سبحانه أن النعمة تُسلب عنه، أن النعمة تزول عنه، وهذا من خطر المعاصي وأضرارها.

إِذَا كُنْتَ فِي نِعْمَةٍ فَارْزُقْهَا... فَإِنَّ الْمَعَاصِيَ تُزِيلُ النِّعَمَ

وَحُطَّهَا بِطَاعَةِ رَبِّ الْعِبَادِ... فَارْتَبِ الْعِبَادِ سَرِيعُ النِّقَمِ

كم من نعم تزال بسبب الإعراض عن دين الله، بسبب معاندة الحق، بسبب الذنوب والمعاصي!

ابتلاهم الله ﷻ بالفقر والخوف بعد أن كانوا في نعمة الأمن والأمان، ورغد العيش، حتى إن أبا سفيان جاء إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وقال: يَا مُحَمَّدُ جِئْتَ تَأْمُرُنَا بِصِلَةِ الرَّحِمِ، وَإِنَّ قَوْمَكَ قَدْ هَلَكُوا فَادْعُ اللَّهَ.. الحديث (٤).

(٤) الحديث رواه البخاري (٤٧٧٤) من طريق: مسروق، قال: بَيْنَمَا رَجُلٌ يُحَدِّثُ فِي كِنْدَةَ، فَقَالَ: يَجِيءُ دُخَانُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَيَأْخُذُ بِأَسْمَاعِ الْمُتَنَافِقِينَ وَأَبْصَارِهِمْ، يَأْخُذُ الْمُؤْمِنَ كَهَيْئَةِ الزُّكَّامِ، فَفَرَّعْنَا، فَأَتَيْتُ ابْنَ مَسْعُودٍ، وَكَانَ مُتَكِنًا فَغَضِبَ فَجَلَسَ، فَقَالَ: مَنْ عَلِمَ فَلْيَقُلْ، وَمَنْ لَمْ يَعْلَمْ فَلْيَقُلْ اللَّهُ أَعْلَمُ، فَإِنْ مِنَ الْعِلْمِ أَنْ يَقُولَ لِمَا لَا يَعْلَمُ: لَا أَعْلَمُ، فَإِنَّ اللَّهَ قَالَ لِنَبِيِّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: {قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ

كفران النعم من أسباب نزول النقم

١٠

ومما قصَّ الله ﷻ علينا قصة صاحب الجنتين:

﴿وَأَضْرَبَ لَهُم مِّثْلًا لِّرَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَبٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ۝﴾ [الكهف: ٣٢].

أحد الرجلين عنده جنتان، أي: بستانان مليئان بالثمار والفواكه والمناظر الخضرة، والآخر ليس عنده شيء.

﴿وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ ۝﴾ أي: في حوافها نخيل.

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ۝﴾ في الوسط زرع، ينتج الحبوب.

﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ ۝﴾ أي: البستانين.

أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ} [ص: ٨٦]، وَإِنَّ قُرَيْشًا أَبْطَثُوا عَنِ الْإِسْلَامِ، فَدَعَا عَلَيْهِمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: «اللَّهُمَّ أَعْنِي عَلَيْهِمْ بِسَبْعٍ كَسَبِعِ يُوسُفَ» فَأَخَذَتْهُمْ سَنَةٌ حَتَّى هَلَكُوا فِيهَا، وَأَكَلُوا الْمَيْتَةَ وَالْعِظَامَ، وَيَرَى الرَّجُلُ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، كَهَيْئَةِ الدُّخَانِ، فَجَاءَهُ أَبُو سُفْيَانَ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ جِئْتَ تَأْمُرُنَا بِصَلَةِ الرَّحِمِ، وَإِنَّ قَوْمَكَ قَدْ هَلَكُوا فَادْعُ اللَّهَ، فَقَرَأَ: {فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ} [الدخان: ١٠] إِلَى قَوْلِهِ: {عَائِدُونَ} [الدخان: ١٥]، أَفِيكْشَفُ عَنْهُمْ عَذَابُ الْآخِرَةِ إِذَا جَاءَ ثُمَّ عَادُوا إِلَى كُفْرِهِمْ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: {يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى} [الدخان: ١٦]، يَوْمَ بَدْرٍ، وَلِزَامًا: يَوْمَ بَدْرٍ {الْمُغْلِبَتِ الرُّومُ} [الروم: ٢] إِلَى {سَيَغْلِبُونَ} [الروم: ٣]، وَالرُّومُ قَدْ مَضَى.

﴿ءَاتَتْ أَكُلَهَا﴾ أي: ثمرها. وأفرد الضمير في {آتَتْ}، ولم يقل: (آتتا)؛ وذلك لأن (كلا وكلتا) لفظها مفرد، ومعناها مثني؛ ولذلك أجز في ضميرهما اعتبار المعنى فيثني، واعتبار اللفظ فيفرد، واعتبار اللفظ أكثر، وبه جاء القرآن^(٥).

﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا﴾ أي: لم تنقص؛ الظلم قد يأتي بمعنى: النقص، ﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا﴾ لم تنقص منه شيئاً، آتت بالشار كاملة وافرة.

﴿وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا﴾ أي: في وسطهما نهر، تدفع الماء؛ للسقي والانتفاع^(٦).

(٥) «مغني اللبيب» (٢٦٨)، و«شرح الأشموني» (٥٦/١).

وفي «شرح التصريح» (٧٠٩/١): ويجوز مراعاة لفظ "كلا" و"كلتا" في الإفراد نحو: {كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ} [الكهف: ٣٣]، ومراعاة معنهما، وهو قليل، وقد اجتمعا في قول الفرزدق:

كلاهما حين جدَّ الجُرِّي بينهما... قد أَقْلَعَا، وكلا أَنْفَيْهِمَا رَابِي

فألحق "أقْلعا" ضمير التثنية مراعاة للمعنى، وأفرد "رابي"، مراعاة للفظ.

(٦) قال الشوكاني في «فتح القدير» (٣٣٩/٣): {وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا} أي: أَجْرَيْنَا وَشَقَقْنَا وَسَطَ الْجَنَّتَيْنِ نَهْرًا؛ لِيَسْقِيَهُمَا دَائِمًا مِنْ غَيْرِ انْقِطَاعٍ.

﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾ أي: يجادله.

﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ (٣٤) اغترار بنعم الله، فخر، كبر بنعم الله سبحانه، فهو يقول: ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا﴾ ثمار وأموال وخدم، ﴿وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ (٣٤) أي: أنا من قبيلة شريفة، وقوي بها.

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾ (٣٥) أفرد الجنة بينما في أولها قال: {جَنَّتَيْنِ}؛ لأن المفرد إذا أضيف يعم.

﴿وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ وهو ظالم لنفسه، أي: متكبر، مفتخر بفضل الله، والفضل فضل الله ﷻ، يعطي فضلًا ويمنع عدلًا، ﴿ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنِّ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا﴾ (٧٠) [النساء: ٧٠].

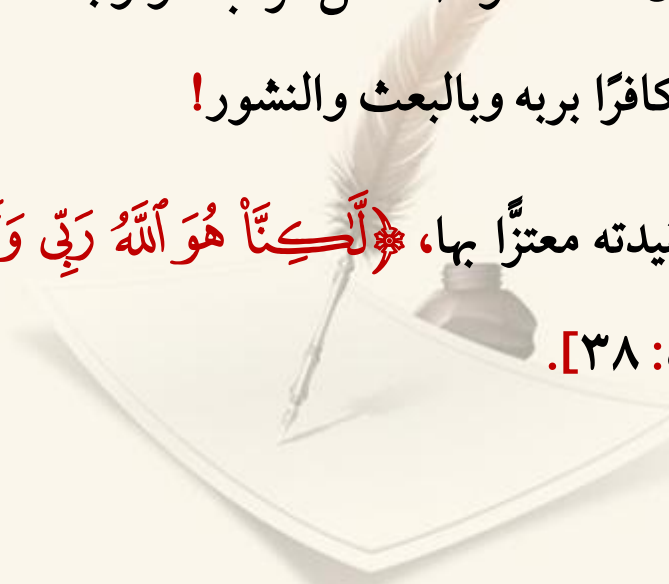
﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾ (٣٥) يقول: لا أظن أن تبعد، أي: لا أظن أن تفنى هذه أبدًا، -أبدًا: ظرف لما يستقبل من الزمان- تبقى كما هي ولن تفنى، ﴿قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾ * وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً { [الكهف: ٣٥-٣٦]، كفر بالبعث

والنشور، ويوم الحساب والجزاء، ﴿وَلَيْنَ رُدِّدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لِأَجَدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦]، إن كان هناك بعث فأنا كريم على الله، ما أعطاني هذه النعم إلا لأني كريم عليه، إلا لأني أستحقها، ما عزا النعمة والفضل إلى الله سبحانه، ولكن يقول: إذا رجعت إلى الله فالله سيعطيه النعم والخير.

ألا نتعلم العقيدة من نبي الله سليمان ﷺ: ﴿هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ١٦].

قال له صاحبه المؤمن: ﴿أَكْفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاهُ رَجُلًا﴾ [الكهف: ٣٧]، فيه تذكير المعاند بأطوار خلقه، فبعد أن كان عدماً، وأصله من تراب، وأوجده الله في أحسن تقويم، صار عنيداً كافراً بربه وبالبعث والنشور!

ثم أظهر المؤمن عقيدته معتزاً بها، ﴿لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ [الكهف: ٣٨].



ثم نصحه، وقال: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ
إِنْ تَرَىٰ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ (٣٩) [الكهف: ٣٩].

(لولا) حرف توبيخ بمعنى: هلاً، ﴿إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ﴾، أي: بستانك^(٧).
﴿قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ أي: الشأن هو مشيئة الله ﷻ، ﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾
القوة هي قوة الله سبحانه، ﴿وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ (١٩).

(٧) فائدة: (لولا) من معانيها حرف توبيخ كما هنا.

قال الكافي في «شرح قواعد الإعراب» (٣٤٢): أي: حرف دال على تهديد وتعنيف ولوم على ترك
فعل في الزمن الماضي. اهـ.

وهي تختص بالدخول على الفعل الماضي ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً﴾.
وقد يفصل بين (لولا) والفعل الماضي:

(إذ)، كآية المذكورة أعلاه، ونحو: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا
هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ (١٢) [النور: ١٢].

و(إذا) ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ﴾ (٨٣) [الواقعة: ٨٣].

أو جملة شرطية معترضة ﴿فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ (٨٦) [الواقعة: ٨٦-٨٧].

يراجع «مغني اللبيب» (٣٦٢)، و«مختصر مغني اللبيب» (٩٩) للشيخ ابن عثيمين رحمه الله.
[من دروسي لـ/ موصل الطلاب إلى قواعد الإعراب].

وأخذ من هذا بعض المفسرين: أن من أعجبه شيء في نفسه، في ولده، في ماله يقول: ما شاء الله لا قوة إلا بالله، أو يقول: اللهم بارك، أي: شيء يعجب الإنسان، ولا يقل: تبارك الله، يقول: اللهم بارك، يدعو له بالبركة، وإذا قلنا: تبارك الله وصفنا الله ﷻ بهذه الصفة، لكن (اللهم بارك) ندعو له بالبركة، وسبحان الله! هذا يردُّ ما في نفس المعجَّب ويكفي شره، و«العين حق» كما قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ.

إنَّ هذا مما ينبغي أن نعود أنفسنا عليه قول: (اللهم بارك)، إذا أُعجِبنا بشيء، نقول: اللهم بارك، حتى ولو في أنفسنا وأموالنا وأولادنا؛ لتدوم النعمة، ولا نسبب الأذى لنا ولا لغيرنا، فهذا من أشد الأذى، فإذا أُعجِبنا بجمال أحد، أو أُعجِبنا بطفل، أو أُعجِبنا بمال، أو أُعجِبنا بأي شيء، قولي: اللهم بارك، عودي نفسك على هذا.



ثم قال الرجل الصالح: ﴿فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُوْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ۝﴾ أي: آفة من السماء. ﴿فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ۝﴾ بدون نبات، ولا تقبل النبات أيضًا^(٨).

﴿أَوْ يُصْبِحَ مَأْوَهَا غَوْرًا﴾ [الكهف: ٤١].

أي: بعيدًا لا يُستطاع الوصول إليه، و(لَا تَنَالُهُ الْأَيْدِي وَلَا الدَّلَآءُ)^(٩)، كما قال ربنا ﷺ: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنِ أَصْبَحَ مَأْوُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَّعِينٍ ۝﴾ [الملك: ٣٠].

وقد كان النهر يجري ويسقي ثمره، من غير كلفة ولا مشقة.

(٨) قال القرطبي في «تفسيره» (٤٠٨/١٠): يَعْنِي: أَرْضًا بَيْضَاءَ لَا يَنْبُتُ فِيهَا نَبَاتٌ وَلَا يَنْبُتُ عَلَيْهَا قَدَمٌ، وَهِيَ أَضْرُّ أَرْضٍ بَعْدَ أَنْ كَانَتْ جَنَّةً أَنْفَعُ أَرْضٍ، وَ﴿زَلَقًا﴾ تأكيد لوصف الصعيد، أي: وتزل عنها الأقدام؛ لِمَلَّاسَتِهَا. يُقَالُ: مَكَانٌ زَلَقٌ (بِالتَّحْرِيكِ) أَي: دَخَضٌ، وَهُوَ فِي الْأَصْلِ مَصْدَرٌ قَوْلِكَ: زَلَقْتُ رِجْلَهُ تَزَلُّقٌ زَلَقًا، وَأَزَلَقَهَا غَيْرُهُ.

(٩) «تفسير البغوي» (١٧٣/٥).

ثم قال تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ﴾ نزلت آفة سماوية إما برد، أو جراد، أو حشرات أو غير ذلك، ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾، فأتلفت جميع أشجاره وثمره.

﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ هذا يدل على أن الآفة كانت ليلاً على هاتين الجنتين.

﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ﴾ هذا من عادة النادم يضرب بيده على الأخرى، يضرب اليمين على الشمال، أو يعض أنامله، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ﴾ [الفرقان: ٢٧].

﴿عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ ندم على كفره بنعم الله سبحانه.

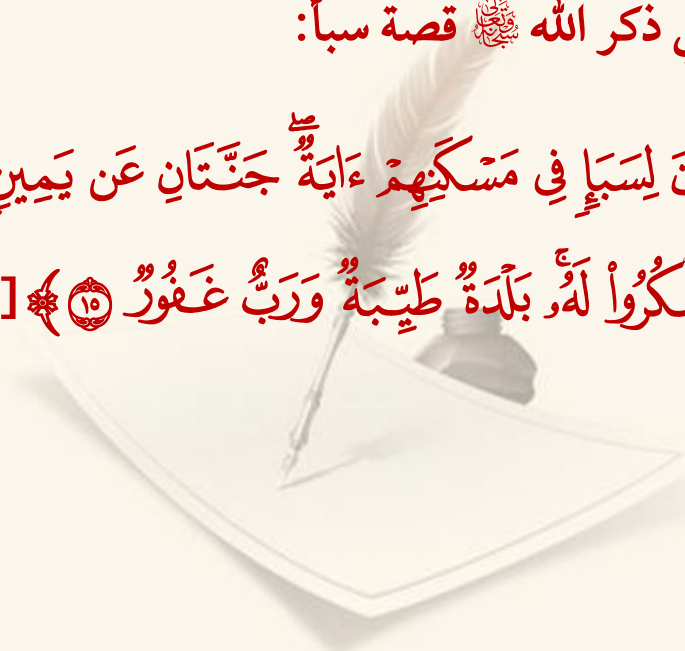
﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾ [الكهف: ٤٣]. مع أنه قد قال: ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾، وخانه وهو أحوج ما يكون إليه، فلم ينفعه أقرباؤه ولا خدمه وحشمه ولا أنصاره.

وهل يستفاد من ندمه وتمنيه أنه لم يشرك بالله أنه أسلم صاحب الجنتين؟
قال السعدي رحمه الله في «تفسيره» (٤٧٧): ولا يستبعد من رحمة الله ولطفه، أن صاحب هذه الجنة، التي أحيط بها، تحسنت حاله، ورزقه الله الإنابة إليه، وراجع رشده، وذهب تمرده وطغيانه، بدليل أنه أظهر الندم على شركه بربه، وأن الله أذهب عنه ما يطغيه، وعاقبه في الدنيا، وإذا أراد الله بعبد خيرا عجل له العقوبة في الدنيا. وفضل الله لا تحيط به الأوهام والعقول، ولا ينكره إلا ظالم جهول.

فهذا مآل كفران النعم الخسران والزوال، ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

ومن القصص التي ذكر الله ﷻ قصة سبأ:

قال ﷻ: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ [سبأ: ١٥].



يذكر الله ﷻ قصة سبأ وما كان فيها من العبر؛ لقد كانوا يتقلبون في نعيم الدنيا وزخارفها وثمارها ورغد عيشها، فكفروا بذلك، فذهبت وبادت وفنيت.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ﴾ أَكَّدَ تَعَالَى ذِكْرَ القصة بثلاثة أشياء: القسم، واللام الواقعة في جواب القسم، وقد التي هي لتحقيق وتأكيد وقوع الفعل.

وسبأ: من مأرب^(١٠)، وكان هناك ملوك اليمن وتبعها، وكان هناك أيضًا الأنصار الذين هم الأوس والخزرج؛ فالأنصار هم أصلهم من اليمن الذين نصروا رسول الله ﷺ وآووه، ولكن لما مُزِّت سبأ وشُرد أهلها؛ بسبب انفجار سدِّ مأرب^(١١)، انتقل الأنصار إلى المدينة، وهذا معنى ما

(١٠) قال ياقوت الحموي في «معجم البلدان» (٣/١٨١): سبأ: بفتح أوله وثانيه، وهمز آخره وقصره: أرض باليمن مدينتها مأرب، بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاثة أيام، فمن لم يصرف فلائته اسم مدينة، ومن صرفه فلائته اسم البلد فيكون مذكراً سَمِيَ به مذكراً.

(١١) قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ في تفسير سورة سبأ: وَكَانَ مِنْ أَمْرِ السَّدِّ أَنَّهُ كَانَ الْمَاءُ يَأْتِيهِمْ مِنْ بَيْنِ جَبَلَيْنِ، وَتَجْتَمِعُ إِلَيْهِ أَيْضًا سُيُولُ أَمْطَارِهِمْ وَأَوْدِيَّتِهِمْ، فَعَمَدَ مُلُوكُهُمُ الْأَقَادِمُ، فَبَنَوْا بَيْنَهُمَا سَدًّا عَظِيمًا

ذكره الحافظ ابن كثير رحمته الله، ومنهم من انتقل إلى الشام^(١٢)، وصار سباً كما يقال: شذر مذر، وصاروا حديثاً، ومثلاً. قال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾.

مُحْكَمًا حَتَّىٰ اِرْتَفَعَ الْمَاءُ، وَحُكِمَ عَلَىٰ حَافَاتِ ذَيْنِكَ الْجَبَلَيْنِ، فَعَرَسُوا الْأَشْجَارَ وَاسْتَعْلَوْا الثَّمَارَ فِي غَايَةِ مَا يَكُونُ مِنَ الْكَثْرَةِ وَالْحُسْنِ، كَمَا ذَكَرَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ. وقال رحمه الله أول تفسير قصة سبأ: كَانَتْ سَبَأٌ مَلُوكَ الْيَمَنِ وَأَهْلُهَا، وَكَانَتِ التَّبَاعَةُ مِنْهُمْ، وَيَلْقِيَسُ -صَاحِبَةُ سُلَيْمَانَ- مِنْهُمْ، وَكَانُوا فِي نِعْمَةٍ وَغِنًى فِي بِلَادِهِمْ، وَعَيْشِهِمْ وَأَتْسَاعِ أَرْزَاقِهِمْ وَزُرُوعِهِمْ وَثِمَارِهِمْ. وَبَعَثَ اللَّهُ إِلَيْهِمُ الرُّسُلَ تَأْمُرُهُمْ أَنْ يَأْكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ، وَيَشْكُرُوهُ بِتَوْحِيدِهِ وَعِبَادَتِهِ، فَكَانُوا كَذَلِكَ مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ أَعْرَضُوا عَمَّا أُمُّرُوا بِهِ، فَعُوقِبُوا بِإِرْسَالِ السَّيْلِ وَالتَّفَرُّقِ فِي الْبِلَادِ أَيْدِي سَيِّئًا، شَذَرَ مَذَرَ.

(١٢) قال ابن كثير رحمه الله في تفسير سورة سبأ: (وَالْأَنْصَارُ أَوْسُهَا وَخَزَرَجُهَا مِنْ غَسَّانَ مِنْ عَرَبِ الْيَمَنِ مِنْ سَيِّئٍ، نَزَلُوا بِبَثْرَبَ لَمَّا تَفَرَّقَتْ سَبَأٌ فِي الْبِلَادِ، حِينَ بَعَثَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرَمِ، وَنَزَلَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ بِالشَّامِ).

ومن قرأ في التاريخ يجد هذا، وهذه مفخرة لليمن أن الأنصار منهم، وإن رفض ذلك حاقدو أهل اليمن.

وقال الشيخ ابن عثيمين في «تفسير سورة سبأ» (١٢٦): الأنصار معروف أنهم الأوس والخزرج، كلهم من قبائل اليمن من قحطان، نزلوا وتفرقوا في البلاد بعد الغرق ونزلوا المدينة.

قال الحافظ ابن كثير في تفسير هذه الآية (١٩) من سورة سبأ: أَيُّ: جَعَلْنَاهُمْ حَدِيثًا لِلنَّاسِ، وَسَمَرًا يَتَحَدَّثُونَ بِهِ مِنْ خَيْرِهِمْ، وَكَيْفَ مَكَرَ اللَّهُ بِهِمْ، وَفَرَّقَ شَمْلَهُمْ، بَعْدَ الْاجْتِمَاعِ وَالْأُلْفَةِ وَالْعَيْشِ الْهَبِيِّ تَفَرَّقُوا فِي الْبِلَادِ هَاهُنَا وَهَاهُنَا؛ وَهَذَا تَقُولُ الْعَرَبُ فِي الْقَوْمِ إِذَا تَفَرَّقُوا: "تَفَرَّقُوا أَيَدِي سَيِّئًا"، "وَأَيَادِي سَيِّئًا"، وَ "تَفَرَّقُوا شَذَرَ مَذَرَ". اهـ.

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ﴾ ما هو هذا المسكن؟

مفسر بما بعده: ﴿جَنَّاتٍ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾، بدل من المسكن أو عطف بيان، والمراد بساتين عظيمة، وبيوتهم وسط بين هذه البساتين، جنتان: جنة عن يمين، وجنة عن شمال، وهذا أحسن وأبهى ما يكون من المناظر!

﴿كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ لا بد من شكر النعم لمن أراد دوامها، لمن أراد استمرارها.

﴿بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ﴾ مثمرة، وجوهنيء لطيف. وقد وصفها الله بأنها طيبة؛ فإن البلد تنقسم إلى قسمين: بلد طيبة، وبلد خبيثة، قال ﷺ: ﴿وَالْبَلَدُ

الطَّيِّبُ يُخْرِجُ نَبَاتَهُ، بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبَتْ لَا يُخْرِجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ
نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾ [الأعراف: ٥٨].

{فَأَعْرَضُوا} أعرضوا عن توحيد الله ﷻ، أعرضوا عن شكر نعم الله،
وكانوا يعبدون الشمس، ومنهم ملكة سبأ- تلك المرأة التي اشتهر أنها
بلكيس والله أعلم-، كما قال الهدهد: ﴿وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾
إِنِّي وَجَدْتُ أَمْرًا تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾
وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ
أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ
الْخَبَاءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ
إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾﴾ [النمل: ٢٢-٢٦].

ثم قال تعالى: ﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ أرسل الله عليهم
سَيْلًا غزيرًا.

﴿وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ﴾ ذهبت تلك الثمار، وتلك المناظر، وتلك
الجنات ذهبت عنهم، وأبدلها الله ﷻ بجنتين أخرى.

لكن ما هما؟

﴿ذَوَاتِیْ أَكُلِ خَمَطٍ وَاتِّلِ وَشَیْءٍ مِّنْ سِدْرٍ قَلِیلٍ﴾ [سبأ: ١٦].

الخمط: الأراك، وأتل: معروف نوع من الأشجار، ﴿وَشَیْءٍ مِّنْ سِدْرٍ قَلِیلٍ﴾ أشجار السدر المليئة بالشوك، ولكنها أيضًا قليلة؛ لأنها قد تأتي بثمر فينتفع بها الجسم وهو النبق.

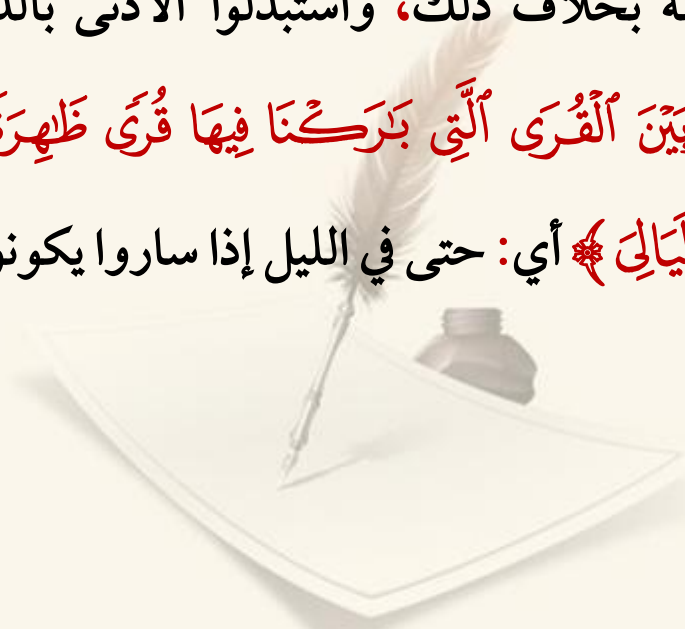
﴿ذَٰلِكَ جَزَآئُهُمْ بِمَا كَفَرُواْ وَهَلْ نُجَازِيْهِ إِلَّا الْكَفُورَ﴾ [١٧] ذلك، أي: إغراق أموالهم بالسيول الغزيرة، وهدم بنائهم، وإتلاف بساتينهم؛ بسبب كفرهم، وإعراضهم عن دينهم.

﴿وَهَلْ نُجَازِيْهِ إِلَّا الْكَفُورَ﴾ (هل) حرف استفهام، ومعناه النفي لكنه جاء على صورة الاستفهام، فالاستفهام فيه صوري، ومعناه النفي، أي: ما نجازي إلا الكفور.

وقد استنبط الشيخ ابن عثيمين من هذه الآية في تفسير سورة سبأ ما يلي: الفرق بين (يُجْزَى) و (يُجَازَى)، فهنا قال: ﴿وَهَلْ نُجَازِيْهِ إِلَّا الْكَفُورَ﴾

﴿١٧﴾، لكن (نَجْزِي) في الثواب، و (نُجَازِي) بالعقاب، هكذا قال بعض العلماء رحمهم الله، فتقول للكافر: جازاك الله تعالى. وتقول للمسلم: جزاك الله تعالى. ففي الخير نقول: جزى. وفي الشر نقول: جازى. ووجه ذلك: أن الخير عطاء محض، وأما العقوبة فهي مجازاة ومكافأة؛ ولهذا نقول: جازاه. يُصاغ الفعل على صيغة المفاعلة، والمفاعلة تكون في الأصل من طرفين. اهـ.

ثم قال سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ﴾ [سبأ: ١٨]. إذا احتاجوا ينتقلون من اليمن إلى الشام، يكونون في أمان، ويتنقلون بين قرى ظاهرة واضحة، متى ما أرادوا ينزلون يقيلون، وينامون ويرتاحون فعلوا، فدعوا الله سبحانه بخلاف ذلك، واستبدلوا الأدنى بالذي هو خير، ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ﴾ أي: حتى في الليل إذا ساروا يكونون آمنين.



﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلَتْهُمُ أَحَادِيثَ وَمَزَّقَتْهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [سبأ: ١٩]. أرادوا أن يكون بينهم وبين احتياجات سفرهم مسافات، ودعوا الله بهذا الدعاء ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلَتْهُمُ أَحَادِيثَ﴾، فجعلهم الله عبرة، وجعلهم الله أحاديث للناس، يتحدثون عن سبأ وكيف صار مآلها؟ ﴿وَمَزَّقَتْهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾، شردهم الله حتى صاروا مثلاً. {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ} هذا فيه عظة لمن يصبر على الآلام، لمن يصبر على المحن، ومن يشكر الله ﷻ على نعمه. وهذا هو حال المؤمن، روى الإمام مسلم (٢٩٩٩) عَنْ صُهَيْبِ بْنِ سَنَانَ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ».

وطلبهم للمباعدة بين أسفارهم، ومطالبتهم بالأدنى يشبه طلب قوم موسى له، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَكُومُ سَيِّ لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ

فَادْعُ لِنَارِكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنِيتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا
وَعَدَسِهَا وَبَصِلَهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ
أَهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ
وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ
وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّيْنَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾

[البقرة: ٦١].

وما السبب في دعائهم المباحة بين أسفارهم؟

قال الشيخ ابن عثيمين رحمته الله في «تفسير سورة سبأ»: لما كانت القرى ظاهرة
ومتقاربة ولا يحتاج فيها إلى حمل زاد وماء، صار فيها الفقراء والأغنياء على
حدٍّ سواء، كلُّ مُنْعَمٍ في هذه الطرُق، فإذا تباعدت صار ذلك من حظِّ
الأغنياء، فسألوا الله تعالى أن يُباعد بين أسفارهم؛ من أجل أن يتناولوا
على فقرائهم، فهؤلاء الأغنياء يركبون الإبل، ويحملون ما شاؤوا من الزاد،
وأما الفقراء فلا يستطيعون ذلك، هذا هو السبب في أنهم دعوا الله تعالى
أن يُباعد بين أسفارهم. اهـ.

فما أخطر الكفر بنعم الله!

فإياك أن تجحدي نعم الله ﷻ عليك؛ لأن هذا من طبيعة الإنسان، فلا بد من معالجة وانتباه؛ فإن هذا شأن الإنسان إذا نقصت نعمة كفرَ بجميع النعم، إذا فاتت نعمة نسي جميع نعم الله سبحانه، وكأنه ما يتقلب في نعم الله سبحانه كل وقتٍ وحين.

وقبل الانتقال من قصة سبأ أرغب في التنبيه على شيء يُسمع تكررًا ومرارًا من بعض الناس - حينما يجد تقلب أحوال اليمن، والمباعدة في أسفاره، خاصة مع هذه الفتن الأخيرة حتى هذه الساعة من هذا العام (١٤٤٨) -، أن هذا بسبب دعاء (سبأ)، وتفرقهم وتشرذمهم.

وأجيب - بحمد الله - وأردُّ بأن اليمن لا يتحمل وزرهم، فهذا في أهل تلك البلدة (سبأ)، في وقتها.

وقد سمعتُ أخيرًا ما يؤيِّدُ ذلك من فتوى للشيخ صالح الفوزان حفظه الله - كما في مقطع صوتي -، في الجواب عن سؤال: هل تفرق أهل اليمن في البلاد وكثرة أسفارهم، هو إجابة الله لدعائهم: ﴿رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾؟

هذا في أهل سبأ؛ ما يتناول المسلمين من أهل اليمن، هذا في أهل سبأ الذين قصّ الله قصتهم في القرآن. اهـ.

وما قص الله ﷻ علينا أيضًا قصة أصحاب الجنة في سورة القلم.

قال سبحانه: ﴿إِنَّا بَلَوْنَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾﴾

[القلم: ١٧]. أي: بلونا كفار قريش، الذين ذكر الله ﷻ بعض أوصافهم في أول هذه السورة، ومن ضمنها: رد رسالة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ {إِذَا تُلِيَّ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ} [القلم: ١٥].

النميمة وهي السعي بالإفساد والتحريش بين الناس، والحلف الكاذب، ومنع الخير، والاعتداء، فالله ﷻ هنا يقول: ﴿إِنَّا بَلَوْنَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾﴾، أكدها بـ(إنّ).

﴿إِنَّا بَلَوْنَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ أي: اخترنا أصحاب الجنة والجنة البستان.

﴿إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾﴾ (إذ) ظرف لما مضى من الزمان، أقسموا،

أي: حلفوا ﴿لَيَصْرُنَّهَا﴾، الصرم القطع، {مُصْبِحِينَ} بكور اليوم قبل أن يأتي المساكين؛ فيصيبوا منها شيئاً.

﴿وَلَا يَسْتَنْتُونَ﴾ (١٨) لا يقولون: إن شاء الله؛ فأنت احرصى على قول: إن شاء الله في المستقبل: سأخرج، سأزور، سأفعل، سأستغل وقتي، بكور يومي، قولي: إن شاء الله؛ لتصلي إلى مطلوبك، وتظفري بما تريدين إن شاء الله، وهو مع كونه فيه منافع ومصالح دنيوية، فهو من ذكر الله سبحانه.

﴿وَلَا يَسْتَنْتُونَ﴾ (١٨) ومنهم من قال: أي: لا يسبحون الله.

﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ (١٩) [القلم: ١٩]. ليلاً نزل عليها آفة سماوية؛ ﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ (٢٠) [القلم: ٢٠]، أي: كالليل الأسود. ﴿فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ﴾ (٢١) [القلم: ٢١]، لما أصبحوا تنادوا؛ ليجتمعوا ويذهبوا للقطع ﴿أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٢٢) [القلم: ٢٢-٢٣]. يتناجون فيما بينهم؛ حتى لا يرتفع الصوت فيسمع المسكين ويحضر، وفسر الله مناجاتهم: ﴿أَن لَّا يَدْخُلْنَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَّسْكِينٌ﴾ (٢٤) [القلم: ٢٤].

يتناجون بهذا، ولكن الله مطلع على ما في قلوبهم، ويسمع كلامهم، ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ (٧٨)

[التوبة: ٧٨]. فأخبر الله ﷻ بنجواهم وقال: ﴿أَنْ لَا يَدْخُلْنَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مُسْكِينٌ﴾، فمهما تكتم الإنسان الله يعلم ما يُسر وما في ضميره؛ ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦]. ويقول سبحانه: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الملك: ١٣].

فإن استخفى الإنسان عن عيون البشر فلا يستخفي عن الله.

وهذا فيه وجوب مراقبة الله سبحانه، وتعظيمه، وأن نحرص ألا يرى منا أو يسمع سوءاً؛ لأنه مطلع على أعمالنا وتصرفاتنا وأحوالنا.

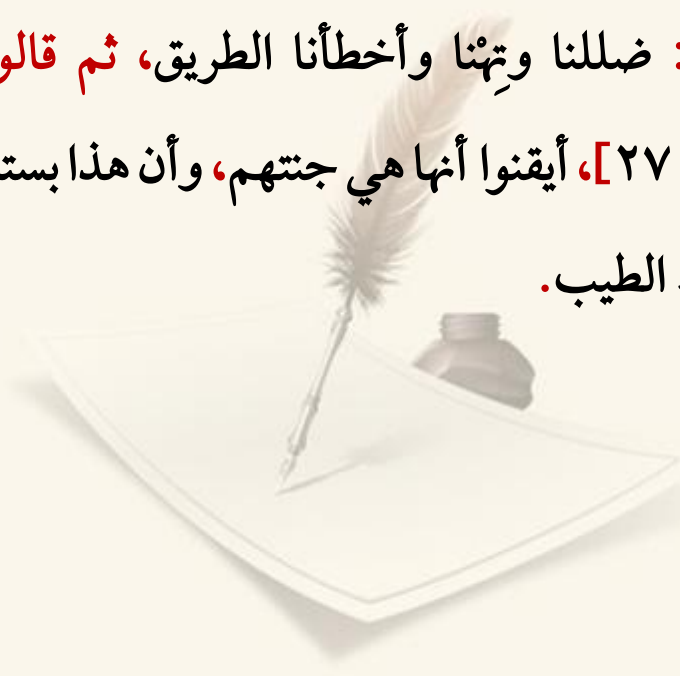
﴿وَعَدُوا عَلَى حَرِّ قَدَرِينَ﴾ [القلم: ٢٥]، أي: غضب على المساكين.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ﴾ [القلم: ٢٦]، لما وصلوا إليها قالوا: ﴿إِنَّا

لَضَالُّونَ﴾ [٢٦]، أي: ضللنا وتبنا وأخطأنا الطريق، ثم قالوا: ﴿بَلْ نَحْنُ

مَحْرُومُونَ﴾ [القلم: ٢٧]، أيقنوا أنها هي جنتهم، وأن هذا بستانهم، ولكنهم

محرومون من الحظ الطيب.



بعد ذلك ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ - أوسطهم: وهو أعدلهم وخيرهم -: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ ﴿٢٨﴾ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَوْمُونَ ﴿٣٠﴾ [القلم: ٢٨-٣٠]. جعل يلوم بعضهم بعضًا.

﴿قَالُوا يَوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ﴾ ﴿٣١﴾ [القلم: ٣١].

أي: حُرْمْنَا؛ بسبب منعنا المسكين حقه.

والله ﷻ يحض على الإحسان إلى المساكين وإطعامهم وجعل لهم حقا في الأموال: ﴿وَعَاثُوا حَقَّهُ وَیَوْمَ حَصَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٤١].

فهنا يقولون: ﴿إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ﴾ ﴿٣١﴾ أي: طغينا واعتدينا وبغينا؛ ﴿عَسَىٰ رَبَّنَا أَن يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾ ﴿٣٢﴾ [القلم: ٣٢]، أن يعوضنا منها في الدار الآخرة.

﴿كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ وَلَٰعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [القلم: ٣٣].

كذلك العذاب وهو نزع النعم لمن لم يشكر الله عليها، لمن بدل نعمة الله كفرًا.

وهل كان أصحاب الجنة مسلمين؟

ظاهر الآيات أنهم كانوا مسلمين؛ ففيه اعترافهم بالذنب (١٣)

ومن أين أصحاب هذه الجنة؟

قال الحافظ ابن كثير في «تفسيره» (٢١٥/٨): ثُمَّ قَدْ ذَكَرَ بَعْضُ السَّلَفِ أَنَّ هَؤُلَاءِ قَدْ كَانُوا مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ، قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: كَانُوا مِنْ قَرْيَةٍ يُقَالُ لَهَا: (ضَرَوَانُ) عَلَى سِتَّةِ أَمْيَالٍ مِنْ صَنْعَاءَ.

وَقِيلَ: كَانُوا مِنْ أَهْلِ الْحَبَشَةِ، وَكَانَ أَبُوهُمْ قَدْ خَلَفَ لَهُمْ هَذِهِ الْجَنَّةَ وَكَانُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ. اهـ المراد.

واشتهر عند العوام الأول؛ حتى إنَّ واحدة تقول لي: قال لي حفيدي: تعالى يا جدة أذهب بك الجنة، فذهب بها إلى (ضروان)، مكان حصي سود، وجعلت تسأل أين الجنة؟

(١٣) قال الشنقيطي في «أضواء البيان» (٢٢٠/٨): وَهَكَذَا الدُّوْلُ الْإِسْلَامِيَّةُ الَّتِي تَأْخُذُ فِي اقْتِصَادِيَّاتِهَا بِالْمَذْهَبِ الْإِسْتِرَاقِيِّ الْمُتَفَرِّعِ مِنَ الْمَذْهَبِ الشُّيُوعِيِّ؛ فَإِنَّهَا بَعْدَ أَنْ كَانَتْ تَفِيضُ بِإِنتَاجِهَا الزَّرَاعِيَّ عَلَى غَيْرِهَا، أَصْبَحَتْ تَسْتَوِرُ لَوَازِمُهَا الْغِذَائِيَّةُ مِنْ خَارِجِهَا، وَتِلْكَ سُنَّةُ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ، وَلَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ كَمَا قَصَّ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْنَا قِصَّةَ أَصْحَابِ الْجَنَّةِ: ﴿إِذْ أَقْسَمُوا لِيَصْرُمُنَّهَا مُصْبِحِينَ وَلَا يَسْتَنْوْنَ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ﴾، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿قَالُوا سُبْحَانَ رَبَّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾؛ وَلِذَا كَانَتْ الزَّكَاةُ طَهْرَةً لِلْمَالِ وَنَمَاءً لَهُ.

فحكى لها هذه القصة التي في سورة القلم.

ومن القصص أيضًا قصة قارون:

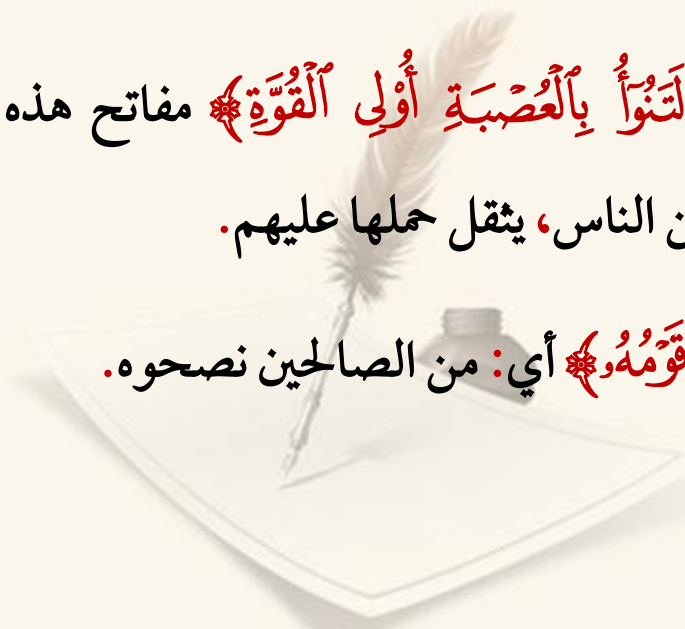
وقارون ممن أنعم الله عليه بالأموال الكثيرة، ثم نزعها منه؛ بسبب تجبره وتكبره، فنزع الله ﷻ النعمة عنه؛ قال ﷺ: ﴿إِنَّ قَرُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى﴾.

وأكثر المفسرين على أن قارون ابن عم موسى ﷺ، ومنهم من قال: عمه، والله أعلم.

﴿فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءَ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦]. ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ﴾ أي: الأموال الكثيرة.

﴿مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءَ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ﴾ مفاتيح هذه الكنوز تثقل بالجماعة الكبيرة من الناس، يثقل حملها عليهم.

﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ﴾ أي: من الصالحين نصحوه.

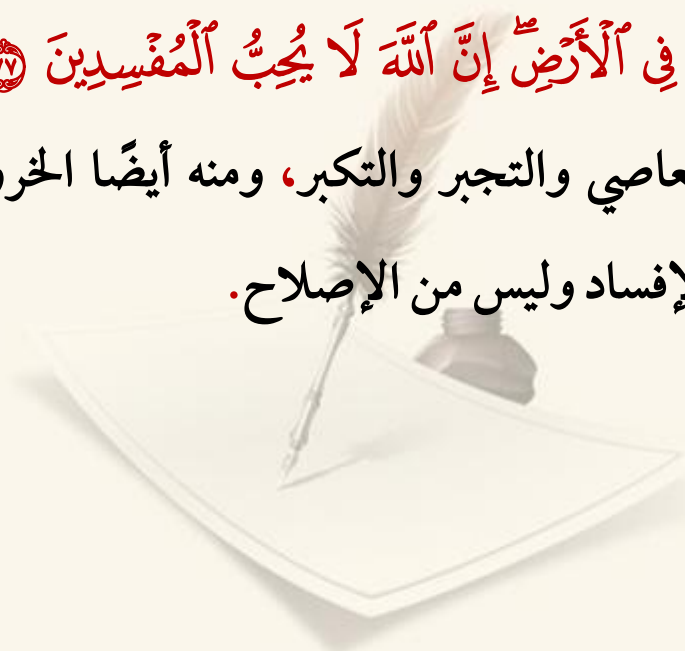


﴿لَا تَفْرَحْ بِآيَةِ اللَّهِ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ (٧٦) الفرح هنا بمعنى: البطر والأشر والتعالي، هذا الصنف لا يحبه الله، فعليك بالتواضع مهما كنت في رغد، وفي نعيم وخير، الزمي التواضع واحذري التكبر فإنه من أسباب زوال رفع النعم، من أسباب نزول النقمة، ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ﴾ استعن بما أعطاك الله من نعيم الدنيا، استعن بذلك على القربات والأعمال الصالحات.

﴿وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ من مطاعمها ومشاربها وملابسها ونعيمها لا تنس، ولكن ابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة.

﴿وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ من أحسن الله إليه يجب عليه أن يحسن إلى الخلق؛ شكراً لله، ولتدوم له النعمة، ويدوم له الخير.

﴿وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٧٧) الفساد لا يحبه الله، ومنه المعاصي والتجبر والتكبر، ومنه أيضاً الخروج على ولاة الأمور، هذا من الإفساد وليس من الإصلاح.



فما كان جواب قارون؟ ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ
قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِن الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا
يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [القصص: ٧٨].

لم يعز النعمة إلى الله سبحانه، يعني يقول: هو أعطاه الله هذا النعيم وهذه
الكنوز وهذه الأموال؛ لأنه يستحقها، ما قال: هذا فضل من الله وشكر
الله ﷻ عليها.

يقول الله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾ [القصص: ٧٩]. خرج
على قومه في زينته في مناظره، وملابسه الفاخرة، وخدمه وحشمه.

﴿قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَلِيتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ
لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾﴾ الذين غرتهم الحياة الدنيا تمنوا أن يكون لهم مثل ما
يكون لقارون ﴿إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾﴾.

فردّ عليهم أهل العلم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ
لِّمَنِ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [القصص:
٨٠]. أي: أجر الله خير لمن، فكان المآل ما قاله أهل العلم، وهذا فيه

شرف العلم والعلماء، وأنهم يضعون الأشياء في مواضعها؛ فكان المآل ما قاله أهل العلم.

﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ﴾ [القصص: ٨١]. قلب الله ﷻ به وبداره الأرض، وذكر أنه خسف الله به إلى الأرض السابعة، لكن هذا يحتاج دليل، فنؤمن بظاهر القرآن ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ﴾ فقارون ممن خسف الله به، وجعله في داخل الأرض، غائص في الأرض^(١٤)، وكما قال ربنا ﷻ: ﴿وَقَرُّونَ وَفِرْعَوْنُ وَهَمْنٌ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُمْ مَن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت: ٣٩-٤٠]. بسبب ذنوبهم وكفران النعم، أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر.

(١٤) (خَسَفَ) الْمَكَانُ ذَهَبَ فِي الْأَرْضِ وَبَابُهُ جَلَسَ. وَخَسَفَ اللَّهُ بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَابِ ضَرَبَ، أَيِ: غَابَ بِهِ فِيهَا. كَذَا فِي «مِخْتَارِ الصَّحَاحِ» (٩٠).

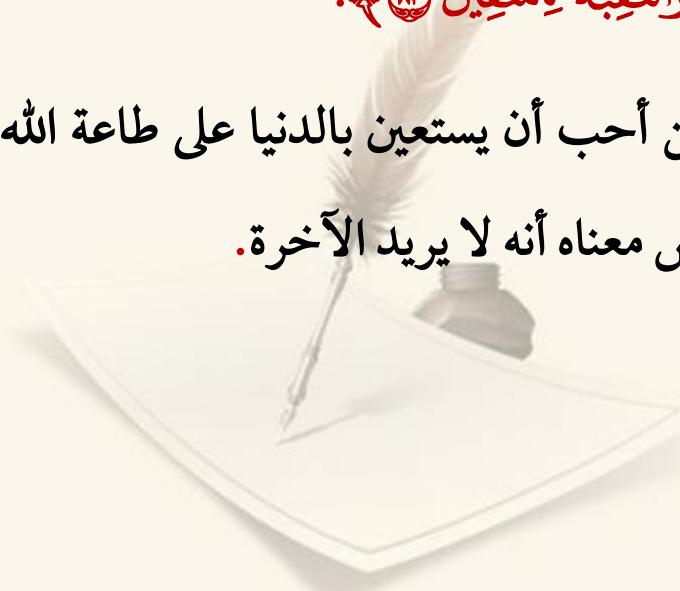
﴿فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾ ﴿٨١﴾ [القصص: ٨١]. ذهب خدمه وحرسه والمقربون إليه ولم ينفعوه أو ينصروه بشيء.

﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَآنَ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بَنَّا وَيَكَآنَهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ ﴿٨٢﴾ [القصص: ٨٢]. أي: لو أعطانا كما أعطى قارون لخسف بنا، ﴿وَيَكَآنَهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ ﴿٨٢﴾ لا فلاح للكافر مطلقاً.

﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿٨٣﴾ [القصص: ٨٣].

إن دار الآخرة أعدّها الله لأهل هذا الوصف: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿٨٣﴾.

وليس معناه أن من أحب أن يستعين بالدنيا على طاعة الله، ويتجمل بها أعطاه الله ﷻ، ليس معناه أنه لا يريد الآخرة.



حتى إن الحافظ ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية يقول عمن أحب أن يكون مظهره أجود من غيره: **وهذا إذا أراد بذلك الفخر والتطاؤل على غيره؛ فإن ذلك مذموم، كما ثبت في الصحيح، عن النبي ﷺ أنه قال: «إنه أوحى إلي أن تواضعوا، حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغي أحد على أحد»، وأما إذا أحب ذلك لمجرد التجميل فهذا لا بأس به، فقد ثبت أن رجلاً قال: يا رسول الله، إني أحب أن يكون ردائي حسناً ونعلي حسنة، أفمن الكبر ذلك؟ فقال: «لا، إن الله جميل يحب الجمال» (١٥).**

فإن الله جميل يحب الجمال، وفي هذا المعنى ما رواه أبو داود (٤٠٩٢) عن أبي هريرة، أن رجلاً أتى النبي ﷺ: **وكان رجلاً جميلاً، فقال: يا رسول الله، إني رجل حُبب إلي الجمال، وأعطيت منه ما ترى، حتى ما أحب أن يفوقني**

(١٥) وقال الحافظ في «فتح الباري» تحت رقم (٥٧٨٨): **الذي يجتمع من الأدلة أن من قصد بالملبوس الحسن إظهار نعمة الله عليه، مستحضرًا لها شاكراً عليها، غير مختفٍ لمن ليس له مثله، لا يضُرُّه ما لبس من المباحات ولو كان في غاية النفاسة، ففي «صحيح مسلم» عن ابن مسعود، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر»، فقال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة، فقال: **إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس**. وقوله: **وغمط: بفتح المعجمة وسكون الميم ثم مهملة، الإحتقار. اهـ المراد.****

أَحَدٌ، إِمَّا قَالَ: بِشِرَاكِ نَعْلِي، وَإِمَّا قَالَ: بِشِسْعِ نَعْلِي، أَفَمِنَ الْكِبَرِ ذَلِكَ؟ قَالَ
«لَا، وَلَكِنَّ الْكِبَرَ مَنْ بَطَرَ الْحَقَّ، وَغَمَطَ النَّاسَ» (١٦).

ولكن من دون كبر ولا غرور واغترار بالدنيا، والتهاء بها عن طاعة الله
ﷻ؛ فإن هذا من كفران النعم؛ ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۖ وَالْآخِرَةُ
خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ (١٧) [الأعلى: ١٦-١٧].

فهذا بعض ما قص الله ﷻ علينا في كتابه؛ ليكون عبرة للمعتبرين، وعظة
للمتعظين، وزاجراً للغافلين، وقد قال سُبحَانَهُ بعد أن ذكر قصة نبيه
يوسف: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ۚ مَا كَانَ حَدِيثًا
يُفْتَرَى﴾ [يوسف: ١١١] الآية.

فينبغي أخواتي في الله أن نتعظ بما يقص الله ﷻ علينا، ونعتبر بما حصل لمن
قبلنا، ونجتنب أسباب نزول نقم الله ﷻ، وما يحل بكافري النعم
وجاحديها.

وإن من أعظم كفران النعم مع ما سبق:

(١٦) الحديث في «الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين» (١٢٩٩).

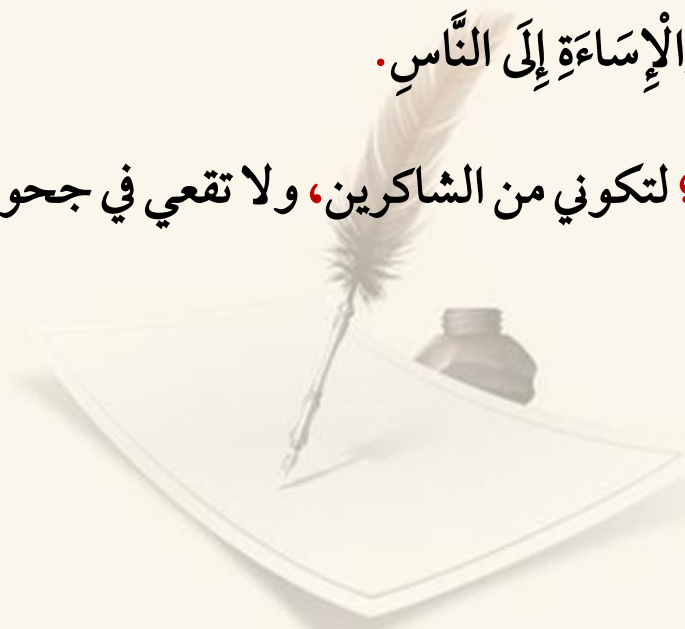
الإعراض عن دين الله، عدم التمسك والاستقامة هذا من أعظم كفران النعم؛ قال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ۖ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ ۝﴾ [إبراهيم: ٢٨-٢٩]. هذا حال من بدل نعمة الله كفرًا، فاستقيمي على دينك، وتمسكي بما جاء به نبيك، واستعيني برّبك.

وكيف يكون شكر الله ﷻ وعدم كفران النعم؟

يكون بتقوى الله، بالعبادة، بالاستقامة، بترك المعاصي؛ قال ﷺ: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَانْتَمِ أَذَلُّ فَأَتَقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝﴾ [آل عمران: ١٢٣].

قال ابن القيم رحمه الله في «أحكام أهل الذمة» (١/٨٨): فَمَا إِنْ سُلِبَتِ النِّعْمُ إِلَّا بِتَرْكِ تَقْوَى اللَّهِ، وَالْإِسَاءَةِ إِلَى النَّاسِ.

فعليك بتقوى الله؛ لتكوني من الشاكرين، ولا تقعي في جحود النعم وأنت لا تشعرين.



وإن أيضًا من أعظم ما تقع فيه المرأة: كفران الزوج كفران العشير؛ روى البخاري (٢٩)، ومسلم (٩٠٧) عن ابن عباس، قال: قال النبي ﷺ: «أُرِيتُ النَّارَ فَإِذَا أَكْثَرُ أَهْلِهَا النِّسَاءُ، يَكْفُرْنَ» قِيلَ: أَيْكْفُرْنَ بِاللَّهِ؟ قَالَ: «يَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ، وَيَكْفُرْنَ الْإِحْسَانَ، لَوْ أَحْسَنْتَ إِلَى إِحْدَاهُنَّ الدَّهْرَ، ثُمَّ رَأَتْ مِنْكَ شَيْئًا، قَالَتْ: مَا رَأَيْتُ مِنْكَ خَيْرًا قَطُّ».

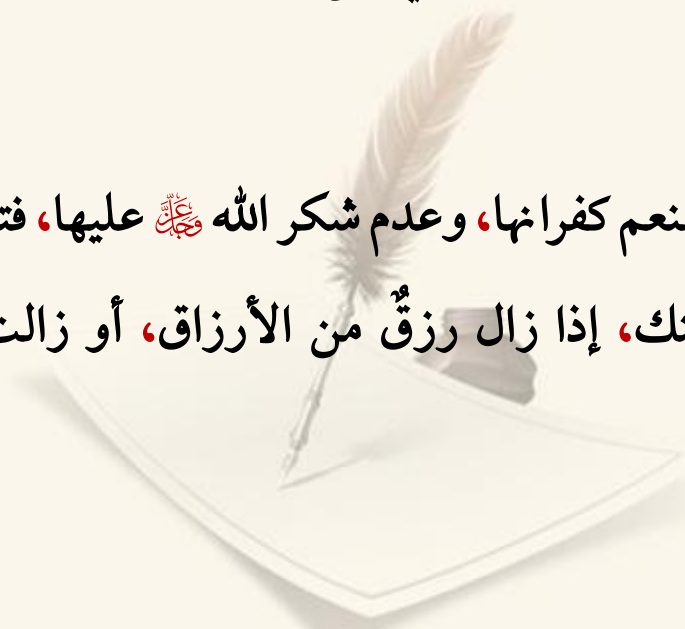
هذا في كفران العشير، وهو الزوج، وهو المخالط، يعني: بمجرد غلطة أو نوع إساءة تجحد جميع الإحسان، «لو أحسنت إلى إحداهن الدهر»، يعني: زمنًا طويلًا، «ثُمَّ رَأَتْ مِنْكَ شَيْئًا»، زلة خطأ، حتى ولو كان عمدًا، وإن كان هذا ليس من شأن الرجال الألباء الرجال الأخيار هذا ليس من شأنهم تعمّد معاندة الزوجة؛ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يقول: «اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا؛ فَإِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ، وَإِنَّ أَعْوَجَ مَا فِي الضِّلَعِ أَعْلَاهُ، فَإِنْ ذَهَبَتْ تُقِيمُهُ كَسَرْتَهُ، وَإِنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ فَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ» رواه البخاري (٣٣٣١)، ومسلم (١٤٦٨) عن أبي هريرة.

والله ﷻ يقول: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ١٩].

وإن أغلبية النساء تقع في هذا إلا من رحم الله ﷻ، نسيان وجحد معروف الزوج، وربما صار حديثها عنه في المجالس، في تقصيره أو أنه مثلاً: بخيل، أو أنه لا يحترمها أو أنه كذا، حال كثير من النساء مجالسهن تعج بالشكاوى، وهذا من جحد النعم، ومن عدم شكر الله ﷻ. روى أبو داود رحمه الله (٤٨١١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا يَشْكُرُ اللَّهُ مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ» وهو في «الصحيح المسند» (١٣٣٠) لوالدي رحمه الله.

ومن أحق من يدخل في هذا الزوج، فتنبهي أيتها المرأة لهذه الصفة الذميمة، واعرفي ما لك وما عليك، فهذه حقوق الأزواج، الزوجة لها حقوق على زوجها، والزوج له حقوق على زوجته، الله ﷻ بينها؛ لتتظم الأسر، وتصلح البيوت، وتعيش في ظل السكينة، وتشعر بالراحة، وتنال السعادة.

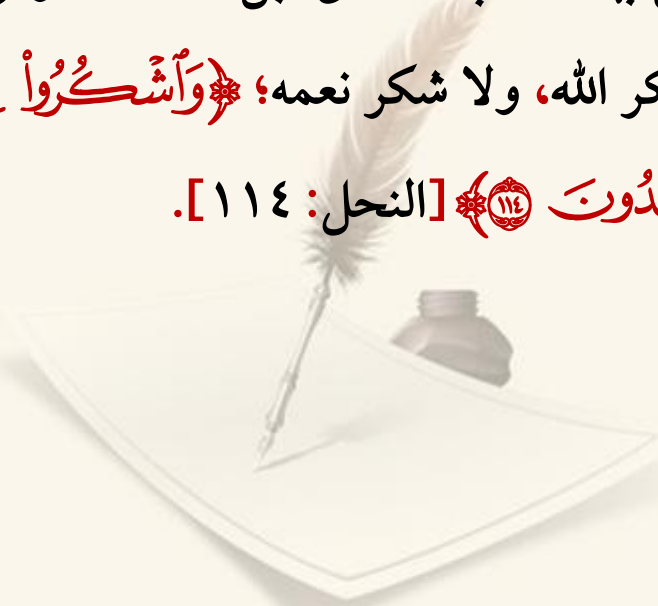
فمن أعظم زوال النعم كفرانها، وعدم شكر الله ﷻ عليها، فتفقدني نفسك إذا زالت نعمة عنك، إذا زال رزق من الأرزاق، أو زالت العافية، أو



ابتليت بشقاوة ولدك أو نحو ذلك، تفقدي نفسك، فقد يكون هذا سبب أعمالك، بسبب معاصيك، بسبب أنك لم تعرفي لماذا خلقت؟ ولأي شيء خلقت له؟ إنك خلقت لعبادة الله سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

قد تحرم المرأة المواصلة في طلب العلم، وقد يكون هذا جزاء لها؛ لأنها ما شكرت نعم الله، ما عملت بعلمها، فحرمها الله سبحانه الثبات على العلم، والمواصلة في السير عليه، قد تكون في عافية وفي خير فتزول تلك النعمة عنها؛ لأنها ما شكرت الله ﷻ.

وإنه -يا أخوات- والله في أزمئتنا هذه من أعظم وأشد ما يزعج عن شكر نعم الله ﷻ وسائل التواصل؛ تحرم المرأة شكر نعم الله سبحانه؛ لأنها تلهي بها، وتُشغل بها، تذهب الدقائق، بل الساعات وهي على الجوال، وهذا ليس من شكر الله، ولا شكر نعمه؛ ﴿وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [النحل: ١١٤].



فاحرصي على أن تكوني من الشاكرين لله، لا من كافري النعم وجاحديها،
وأقبلي على طاعة الله كما سمعت، واسعي لآخرتك؛ فالحياة قليلة.

أَسْأَلُ اللَّهَ ﷻ أَنْ يُوَفِّقَنِي وَأَخَوَاتِي لِكُلِّ خَيْرٍ، وَأَنْ يَجْعَلَنَا مِنَ الَّذِينَ يَشْكُرُونَهُ
وَيَشْكُرُونَ نِعْمَهُ، نَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَحْفَظَ لَنَا إِيمَانَنَا وَعَقِيدَتَنَا، وَأَنْ يَحْفَظَ لَنَا نِعْمَهُ عَلَيْنَا،
وَنَسْأَلُهُ الْمَزِيدَ مِنْ وَاسِعِ فَضْلِهِ، وَنَسْأَلُهُ ﷻ أَنْ يَصْلَحَ لَنَا بِلَادَنَا، وَأَنْ يَدْفَعَ عَنْهَا الْفِتْنَ
مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ.

